

القصة الكاملة لهبة المقدسين من باب حطة إلى باب الأسباط

عبد الرؤوف أرناؤوط*

في أول حراك سلمي يحقق كامل أهدافه، استبدل عشرات الآلاف من الفلسطينيين في مدينة القدس الشرقية، وللمرة الأولى، أعلام الفصائل السياسية بسجادات الصلاة في حراك شعبي سلمي غير مسبوق قاد إلى تراجع الحكومة الإسرائيلية عن تثبيت بوابات إلكترونية وجسور وممرات معدانية عند بوابات المسجد الأقصى.

بدأت البلدة العتيقة من القدس كما لم يعرفها الفلسطينيون من قبل، فعشرات الآلاف من السكان كانوا يتدفقون يومياً من أحياء المدينة كلها لأداء الصلوات الخمس عند باب الأسباط، وهو إحدى البوابات في جدار البلدة القديمة، والممر الضيق المؤدي إلى باب المجلس، إحدى بوابات المسجد الأقصى.

في مواعيد صلاتي المغرب والعشاء كانت الساحة المقابلة لباب الأسباط (الجدار الشمالي للمسجد الأقصى) تضيق بالمصلين، فتمتد إلى الشوارع القريبة وتصل إلى شارع رئيسي يؤدي إلى باب الأسباط، وأيضاً إلى حيي رأس العمود وسلوان.

يقول رئيس الأكاديمية الفلسطينية للشؤون الدولية، مهدي عبد الهادي، مستعرضاً ما حدث في الفترة ١٤ - ٢٧ تموز/يوليو: "كان حراكاً شبابياً غير تقليدي، اشتباك المثقف المنضبط بأسلوب خلّاق جديد عنوانه الأسفلت سجادي وطريقي إلى الأقصى، بهدف تحييد آلة القمع الإسرائيلية المسلحة."

لم تختبر إسرائيل هذا النوع من الاحتجاج منذ احتلالها مدينة القدس في سنة ١٩٦٧، فتفاجأت ولم تعرف كيف تتعامل معه، حتى اضطرت في النهاية إلى التراجع، الأمر الذي مكّن المقدسين من إعلان الانتصار في مشهد لم تشهده المدينة من قبل.

ويقول عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ومسؤول ملف القدس فيها، أحمد قريع (أبو العلاء): "كان التحرك مفاجئاً تماماً للإسرائيليين، وحقق انتصاراً حقيقياً بإلزام إسرائيل بإزالة البوابات الإلكترونية والكاميرات والجسور والممرات المعدنية من مداخل المسجد الأقصى."

ليس إسرائيل وحدها من تفاجأ بهذا الحراك، بل أيضاً القيادة السياسية الفلسطينية والقيادة الميدانية المقدسية التي أطلقت على نفسها اسم "المرجعيات الدينية".

وتكونت المرجعيات الدينية في القدس من رئيس مجلس الأوقاف في القدس الشيخ عبد العظيم سلهب، ورئيس الهيئة الإسلامية العليا الشيخ عكرمة صبري، ومفتي القدس والديار الفلسطينية الشيخ محمد حسين، والقائم بأعمال قاضي القضاة في القدس واصف البكري.

* صحفي فلسطيني.

وبدا أن تركيبة هذه المرجعيات تعكس توازنات الوضع في المسجد الأقصى؛ فالشيخ سلهب والبكري يتوليان منصبين في الحكومة الأردنية، راعية المقدسات في القدس، بينما الشيخ حسين هو موظف في السلطة الفلسطينية، أما الشيخ صبري فيرأس مؤسسة تمثل المجتمع المدني الفلسطيني المسلم في مدينة القدس.

ويؤكد الشيخ صبري أن الحراك الشعبي "كان مفاجأة سعيدة بالنسبة إلينا، وفي الحقيقة لم نكن نتوقعه، وهذا لم يرق للاحتلال الذي كان يهاجم المصلين بقنابل الصوت والرصاص المطاطي ويتعرض لهم بالضرب بالهراوات، لكن الشبان كانوا يعودون وبأعداد أكبر مع كل صلاة جديدة." وخلال الهبة، خاطب الرئيس الفلسطيني محمود عباس حشداً من فاعليات القدس قائلاً: "كل التحية والتقدير لكم يا أهل القدس، الآن أنتم علمتمونا درساً، وأقول لكم علمتمونا درساً، نحن قيادتكم صحيح، لكن تعلمنا منكم، لو لم تكونوا شجعاناً، لو لم تكونوا حكماء، ولو لم تكونوا رجالاً أوفياء لوطنكم وبلدكم ولمسجدكم ولكنيستكم، لما وقف معكم أحد."

كيف بدأت القصة

كانت أصوات الرصاص الكثيف تتردد في جنبات المسجد الأقصى في الساعة السابعة من صباح يوم الجمعة ١٤ تموز/ يوليو، حين شاهد حراس المسجد أفراداً من الشرطة الإسرائيلية وهم يحيطون بثلاثة شبان فلسطينيين وقد أصبحوا جثثاً تسيل منها الدماء، وتبين لاحقاً أن الثلاثة يحملون الاسم محمد، وكلهم من عائلة جبارين، من أعمار مختلفة، وهم من مدينة أم الفحم.

سريعاً شرعت الشرطة في تجميع حراس المسجد وموظفي الأوقاف في منطقة باب الأسباط بعد طرد جميع المصلين من داخله معلنة مقتل شرطيّين إسرائيليين برصاص الشبان الثلاثة خارج باب حطة في الجدار الشمالي للمسجد.

ولم تكد تمر دقائق حتى أعلنت قيادة الشرطة الإسرائيلية إغلاق المسجد حتى إشعار آخر، مع حظر صلاة الجمعة فيه في ذلك اليوم، بقرار من قائد الشرطة الإسرائيلية في القدس يورام هليفي.

كانت هذه المرة الثانية في غضون ٥ عقود التي لا تُؤدى فيها صلاة الجمعة في المسجد، والتي يتم فيها إغلاق المسجد بشكل كامل بعد إغلاقه للمرة الأولى في سنة ٢٠١٤ في إثر محاولة الشهيد الأسير المحرر معتز حجازي قتل عزاب اقتحامات المسجد، الحاخام المتطرف يهودا غليك، في القدس الغربية.

لكن بخلاف المرة الأولى، فقد مُنع الأذان من المسجد، وطُرد جميع الحراس من داخله باستثناء ٣ أشخاص هم موظفان في دائرة الأوقاف وأحد الحراس.

يقول مدير دائرة الأوقاف الإسلامية في القدس، الشيخ عزام الخطيب: "أجرت الشرطة عمليات تفتيش واسعة في داخل المسجد على مدى يومي الجمعة والسبت، وعبثت بمحتوياته، وعمدت إلى تكسير أبواب مكاتب وأقفال أبار، ولا نعلم حقيقة ما الذي جرى في المسجد خلال هذين اليومين الكاملين. وقد شكلنا ٤ لجان فنية متخصصة من أجل التحقيق وفحص كل ما جرى وتقديم تقرير متكامل سيتم نشره لعامة الناس."

بحلول مساء يوم السبت كانت طواقم إسرائيلية قد شرعت في تركيب بوابات إلكترونية في المداخل الخارجية لأبواب الأسباط والمجلس والسلسلة، بينما أبقت بقية الأبواب مغلقة، وهي حطة والملك فيصل والحديد والقطانين والمطهرة.

وبررت الشرطة الإسرائيلية وضع البوابات بأنه للكشف عن إدخال أسلحة إلى المسجد، على الرغم من أن الشرطة، وبعد يومين من التفتيش الدقيق في المسجد، لم تجد أي قطعة سلاح.

لا صلاة في المسجد بوجود البوابات

أعلنت الشرطة الإسرائيلية قرار إعادة فتح بعض بوابات المسجد الأقصى ظهر يوم الأحد على أن يكون الدخول إلى المسجد من خلال باب الأسباط.

تجمّع ما يزيد على ٢٠٠٠ فلسطيني أمام باب الأسباط، في انتظار إعادة فتح المسجد، تتقدمهم المرجعيات الدينية ومدير المسجد الأقصى، الشيخ عمر الكسواني.

ويقول الكسواني: "كان القرار ألا ندخل إلى المسجد من خلال البوابات، فحاولت الشرطة الإسرائيلية الالتفاف على هذا الموقف فسمحت للمشايخ بالمرور من خارج البوابات، أمّا باقي المصلّين فمن خلال البوابات الإلكترونية، وبطبيعة الحال كان موقفنا الرفض، وقلنا إنه يجب تمكين الجميع من المرور وإزالة البوابات وإلا فلن ندخل."

ويضيف: "رفضت الشرطة موقفنا هذا فكان قرارنا أن لا مرور من خلال البوابات مهما يكن الثمن، حتى لو كان ذلك يعني عدم دخولنا إلى المسجد."

هتف البكري، القائم بأعمال قاضي القضاة، بأعلى صوته: "لا دخول من خلال البوابات"، فكانت تلك شرارة الرفض للبوابات والإصرار على وجوب إزالتها، وأقام المسلمون الذين كانوا في المكان صلاة الظهر في ساحة الغزالي (وهي ساحة سُميت نسبة إلى العلامة أبي حامد الغزالي)، المؤدية إلى باب الأسباط. واستمر الوضع على هذا النحو، لكن مع زيادة متواترة بأعداد المصلّين، حتى السابع والعشرين من الشهر.

كان ثمة من يرى وجوب الدخول إلى المسجد وعدم تركه للإسرائيليين، ولذلك كان المطلوب موقفاً إجماعياً برفض الدخول عبر البوابات الإلكترونية.

ولادة قيادة جديدة

عقدت شخصيات دينية وسياسية مؤتمراً صحافياً في مقر "بال ميديا" في جبل الزيتون لإعلان رفض الدخول من خلال البوابات. وفي موازاة ذلك كان ثمة تحرك أكبر، فقد اجتمعت المرجعيات الدينية، وهي مؤسسات تاريخية سبق أن أصدرت بيانات مشتركة، وقررت أنها يجب أن توجه نداء إلى الناس في القدس.

ويقول عبد الهادي الذي شارك في جميع اجتماعات المرجعيات وساهم في صوغ بياناتها: "كان القرار أنه بما أن الحديث هو عن تحرك شعبي، فلا يجب توجيه النداء من أحد الفنادق، وإنما من إحدى دوائر الأوقاف الإسلامية، ووقع الاختيار على مقر المحكمة الشرعية في حي وادي الجوز بما أنه المقر الوحيد المتاح للوصول إليه."

ويضيف عبد الهادي: "عُقد المؤتمر الصحافي الأول في مقر المحكمة الشرعية، وجلس المشايخ الأربعة وتم توجيه النداء إلى السكان، وكان التفاعل معه كبيراً جداً والاستجابة غير مسبقة." وجاء في البيان الذي وُقّع باسم "المرجعيات الدينية": "نهيب بأهلنا عدم التعامل معها [البوابات الإلكترونية] مطلقاً، وعدم الدخول من خلالها إلى المسجد الأقصى المبارك بشكل قاطع."

حتى الآن لم يتضح كيف جاء اسم "المرجعيات الدينية"، إذ اكتفى الشيخ صبري بالقول إن "الأمر كان عفويّاً، ولم يجر التخطيط له مسبقاً."

انضم الفلسطينيون إلى المرجعيات الدينية في رفض الدخول إلى المسجد من خلال البوابات، وبدأت الصلوات في الشوارع بالمئات، ثم توسعت شيئاً فشيئاً، إلى أن تمت بمشاركة عشرات الآلاف من المقدسيين.

في اليوم الثالث للصلوات أراد الشيخ الكسواني الوصول إلى الصفوف الأمامية لأداء الصلاة في باب الأسباط، فحمله الشبان على الأكتاف، ثم حملوا الشيخ حسين، والشيخ صبري، والشيخ البكري، والشيخ سلهب.

كان مشهد حمل قيادات على الأكتاف فريداً في مدينة القدس منذ رحيل الشهيد فيصل الحسيني.

فالمقدسيون شعروا على مدى أعوام بأنهم مهمشون من طرف السلطة الفلسطينية، وأن تعدد المرجعيات السياسية المسؤولة عن القدس يعبر عن عدم اهتمام جدي بالمدينة، ولذلك فقدت تلك المرجعيات ثقة المواطنين.

حملة إسرائيلية مضادة

مع توسع الحراك الشعبي المقدسي الرافض للبوابات، سعت إسرائيل لكسر الإجماع الفلسطيني الذي تبلور، فنشطت عبر وسائل التواصل الاجتماعي التابعة للحكومة والجيش والشرطة الإسرائيليين، في نشر مقاطع مصورة لبعض الفلسطينيين الذين دخلوا إلى المسجد من خلال البوابات. وجاء في هذه النشرات الإسرائيلية: "هكذا دخل المصلون المسلمون إلى الحرم الشريف عبر البوابات الإلكترونية معززين مكرمين. لا تقعوا في فخ التحريض الفلسطيني الذي يسعى لتصعيد الأوضاع في الأماكن المقدسة."

وفي موازاة هذه الحملة، دفعت الشرطة الإسرائيلية بمزيد من قواتها إلى مدينة القدس مع التركيز على بوابات البلدة القديمة وأزقتها ومحيط المسجد الأقصى. لكن هذه السياسة الإسرائيلية لم تفلح، فجرى اللجوء إلى العنف، وبدأت الشرطة الإسرائيلية باستفزاز المصلين في البلدة القديمة، وغالباً ما كانت تلقي قنابل الصوت وتطلق الرصاص المطاطي عليهم وتعتدي عليهم بالضرب بالهراوات، من دون تمييز بين نساء وكبار وأطفال وشباب ورجال ونساء.

خلافات إسرائيلية داخلية

تسبب تصاعد الاحتجاجات الشعبية المقدسية ضد البوابات بنشوء خلافات إسرائيلية داخلية، فبينما أيد جهاز الأمن العام الإسرائيلي (الشاباك) والجيش الإسرائيلي إزالة البوابات، تمسك وزير الأمن الداخلي الإسرائيلي غلعاد أردان ومعه الشرطة الإسرائيلية بهذه البوابات. وكشفت وسائل إعلام إسرائيلية أن نتنياهو اتخذ القرار بدعم قرار الشرطة وضع البوابات خلال مكالمة هاتفية قبيل سفره إلى أوروبا.

جهود وضغوط دبلوماسية

مع تزايد أعداد المصلين في البلدة القديمة تكثفت المساعي الدبلوماسية، وخصوصاً بمشاركة الأردن وإسرائيل والولايات المتحدة ولاحقاً السلطة الفلسطينية، في محاولة لإيجاد حل قبل حلول يوم الجمعة الذي تقرر خلاله اقتحام البوابات من قبل المصلين.

بحلول مساء الخميس لم يكن قد تم التوصل إلى حل، فبادر جاريد كوشنر، كبير مساعدي الرئيس الأميركي دونالد ترامب، إلى الاتصال بالرئيس محمود عباس لحظة هبوط طائرته في مطار ماركا في العاصمة الأردنية عمان بعد قطع زيارته للصين.

وقال مساعد للرئيس الفلسطيني: "إن كوشنر يريد المساعدة في تهدئة الأمور، معتبراً أن لا مشكلة في وضع البوابات، فكان رد الرئيس أبو مازن أنه حتى حلول موعد صلاة الجمعة هناك أكثر من ١٠ ساعات، وأنه في إمكان الولايات المتحدة حتى ذلك الحين أن تضغط على إسرائيل لإزالة البوابات، وأن تسمح للمصلين بالدخول إلى المسجد من دون قيود، لأن هذا من شأنه أن يساهم في تهدئة الأمور."

وأضاف: "قال له الرئيس عباس إنه إذا لم تتم إزالة البوابات، وإذا وقعت مواجهات بين المصلين وقوات الاحتلال الإسرائيلي، فإن أجهزة الأمن الفلسطينية لن يكون في إمكانها التعاون مع نظيرتها الإسرائيلية، وعليه فسيتم وقف جميع الاتصالات مع الطرف الإسرائيلي بما فيها الأمنية." لم يستجب المبعوث الأميركي، المؤيد أصلاً لليمين الإسرائيلي المتطرف، فأصرت الحكومة الإسرائيلية على موقفها، ودفعت بمزيد من قواتها إلى القدس، وقررت فرض قيود على دخول المصلين إلى البلدة القديمة.

المرجعيات تتحرك من جديد

في المقابل وفي مسعى منها لزيادة أعداد المصلين في شوارع القدس، أعلنت المرجعيات الدينية، وللمرة الأولى منذ سنة ١٩٦٧، إغلاق المساجد الفرعية في أحياء مدينة القدس في موعد صلاة الجمعة، واقتصر الصلاة على محيط المسجد الأقصى.

وقال الشيخ محمد حسين في مؤتمر للمرجعيات في مقر المحكمة الشرعية: "خطبة الجمعة وصلاة الجمعة يجب أن تكونا في المسجد الأقصى، لا في أي مسجد آخر ضمن المدينة المقدسة وحدودها؛ المسجد الأقصى هو أبو المساجد، وهو أساس المساجد في هذه الأرض الطيبة المباركة."

وقال البكري: "نناشد جميع المسلمين في جميع المساجد أن يحاولوا قدر استطاعتهم أن يزحفوا إلى المسجد الأقصى المبارك، وأن يصلّوا الجمعة عند بوابات المسجد الأقصى بلا حواجز وبوابات إسرائيلية، فإن لم يستطيعوا، فعند أبواب المسجد الأقصى وأسوار مدينة القدس، أو حيثما تيسر لهم الصلاة، وإن شاء الله، يكون لهم الأجر كاملاً حيثما تيسرت لهم الصلاة."

استجاب عشرات الآلاف من المقدسيين لهذه الدعوة، وانطلقوا في اتجاه الشوارع القريبة من البلدة القديمة، وأدوا الصلاة في شارع صلاح الدين ووادي الجوز وباب العمود وباب الأسباط ورأس العمود، وحتى في داخل البلدة القديمة.

هاجمت الشرطة الإسرائيلية المصلين بعد انتهاء الصلاة، فأصاب المئات بجروح متفاوتة، واستشهد ٣ فلسطينيين هم: محمد شرف من رأس العمود، ومحمد أبو غنام من حي الطور، ومحمد لافي من أبو ديس، وتم تشييعهم بمشاركة الآلاف من السكان بجنائز طافت في أحياء المدينة. وقد ردّت القيادة الفلسطينية على هذا العنف الإسرائيلي بقرار وقف جميع الاتصالات، بما فيها الأمنية، مع الحكومة الإسرائيلية.

ولم يصدق كثير من الفلسطينيين أن القيادة الفلسطينية قامت فعلاً بهذه الخطوة التي تمت المطالبة بها منذ أعوام.

القدس كما لم تكن

لم يتوقف تدفق المصلين، فعشرات الآلاف من الفلسطينيين كانوا يتوجهون، وخصوصاً في فترة صلاتي المغرب والعشاء، إلى منطقة باب الأسباط بشكل لم تعهده مدينة القدس من قبل.

وفي الطريق الضيق المؤدي إلى باب المجلس كان المئات من المصلين ينتشرون، فيتحدثون في شؤون القدس والمسجد الأقصى، ويصطفون في صفوف طويلة مع انطلاق الأذان.

ولأن درجات الحرارة كانت مرتفعة، فإن كثيرين من السكان كانوا يتبرعون بزجاجات المياه الصغيرة التي كان يجري تبريدها في المقر الكبير للجالية الأفريقية في باب المجلس.

وقال مدير نادي الأسير في القدس والناشط البارز، ناصر قوس: "كان كثيرون من الناس يأتون معهم تبرعات لمساعدة المصلين على الصمود، فمنهم من كان يجلب زجاجات المياه، ومنهم من كان يجلب الطعام والعلويات."

أدى أفراد الجالية الأفريقية دوراً كبيراً في تقديم المساعدة للمصلّين، وأيضاً في إعداد الطعام، بل حتى توفير أماكن الوضوء والمراحيض في منازلهم للمصلّين. وقال مصطفى أبو سنيّه (٣٦ عاماً): "بارك الله فيهم، هنا نحن لا نحتاج إلى أي شيء، فكل شيء متوفر وهم لا يقصرون معنا، نشعر كأننا في منازلنا." كانت هذه المساعدة مطلوبة، ولا سيما أن كثيرين من المصلّين كانوا يأتون من أحياء مدينة القدس كلها، وليس من البلدة القديمة فقط.

وفي ركن في مدخل مقر الجالية الأفريقية تجمعت النساء كي يكون في إمكانهن أداء الصلاة. كان أفراد من الشرطة الإسرائيلية يمرّون بصورة استفزازية بين المصلّين فيأتيهم الرد دائماً عبر هتاف "الله أكبر" و"بالروح، بالدم نفديك يا أقصى". وكانت الشرطة تعتدي على المصلّين بزعم رشق الحجارة. الصلوات الأكبر كانت تتم في منطقة باب الأسباط بمشاركة عشرات الآلاف تتقدمهم المرجعيات الدينية. وبين المصلّين كان يمكن رؤية شبّان صغار يأتون إلى الصلاة للمرة الأولى، فيسألون كبار السن عمّا يقال في الركوع والسجود. ولأن صفوف المصلّين طويلة جداً لا تصلها أصوات مكبرات الصوت الصغيرة، فإن كل صف كان يردد الله أكبر مع كل حركة في الصلاة ليسمع الصف الذي يليه. بعض الشبان لم يكونوا من الملتزمين بأداء الصلوات في أيامهم العادية، ولذلك فقد أطلقوا على صلاتهم "صلاة الجكر"، أي نكايّة بالاحتلال الإسرائيلي لتأكيد تمسكهم بالأقصى. وبدلاً من أصوات الأغاني العبرية التي كانت تنطلق من مكبرات الصوت المتطورة في سيارات الشبان في شوارع أحياء القدس، بات في الإمكان الاستماع إلى الأغاني الوطنية والإسلامية وأغاني مارسيل خليفة. كان الأئمة يهتفون كل صلاة بالدعاء إلى الله بأن يعيد فتح المسجد الأقصى، وأن يتمكن المصلّون من دخوله مجدداً، ويأتي الرد من آلاف المصلّين بترداد: "يا الله، يا الله".

شبكات التواصل الاجتماعي

أدت شبكات التواصل الاجتماعي دوراً كبيراً في زيادة أعداد المصلّين، إذ إن بث الصور عن الأعداد الضخمة للمصلّين من خلال تلك الشبكات كان يشجع المقدسين على القدوم إلى الصلاة. ودرج المقدسيون في كل صلاة على تصوير أعداد المصلّين ونشرها في صفحاتهم في "الفيسبوك" الأكثر استخداماً في فلسطين، و"تويتر" المستخدم على نحو أقل.

الجمعتان الثانية والثالثة

أخفقت جميع محاولات الشرطة الإسرائيلية في تقليص عدد الزاحفين إلى الصلاة في يوم الجمعة الثانية، عبر إغلاق عدد من أبواب البلدة القديمة أمام الفلسطينيين من غير سكان البلدة واستخدام قنابل الصوت والرصاص المطاطي والاعتداء المتكرر بالهراوات، لكن أعداد المصلّين ظلت تتزايد وتمتد من داخل القدس القديمة إلى خارجها، حتى الشارع الرئيسي الذي يربط المدينة بحيي سلوان ورأس العمود. وقال الشيخ صبري: "كلما تم الاعتداء أكثر على المصلّين، كانت أعدادهم تزداد، الأمر الذي أربك الشرطة الإسرائيلية."

ومع اقتراب الجمعة الثالثة، تكتفت المساعي الدبلوماسية في محاولة للوصول إلى حل، فأرسلت الإدارة الأميركية مبعوثها جيسون غرينبلات إلى المنطقة حيث اجتمع برئيس الحكومة الإسرائيلية بنيامين نتنياهو قبل أن يتوجه إلى الأردن.

وفي عمان كانت قد برزت أزمة السفارة الإسرائيلية حيث قتل حارس أمن إسرائيلي مواطنين أردنيين بزعم الخلاف معهما في أثناء تركيب أثاث في شقة تابعة للسفارة الإسرائيلية، علماً بأن الأردن وإسرائيل نفتا لاحقاً وجود أي علاقة بين هذه الحادثة وقيام الشرطة الإسرائيلية مساء الخميس بإزالة البوابات من مداخل المسجد الأقصى.

واستعدت إسرائيل لصلاة الجمعة الثالثة بنشر الآلاف من عناصر الشرطة الإسرائيلية في أنحاء القدس الشرقية، مانعة الفلسطينيين من سكان القدس الشرقية والداخل الفلسطيني وجميع سكان الضفة الغربية وغزة من الوصول إلى المسجد الأقصى لأداء الصلاة.

لكن المرجعيات الإسلامية اجتمعت مجدداً وقررت أن لا صلاة في المسجد الأقصى إلا بعد إزالة جميع التعديلات على المسجد، بما في ذلك الجسور والممرات المعدنية عند بعض الأبواب، وإعادة فتح جميع أبواب المسجد من دون استثناء، ومن دون قيود، أمام المصلين.

وأدى عشرات الآلاف من الفلسطينيين صلاة الجمعة في الشوارع القريبة من البلدة القديمة، لكنهم تفادوا بشكل كبير استفزازات الشرطة الإسرائيلية لهم، فانتهت الصلاة من دون دماء، وإن كان كثيرون من الفلسطينيين أصيبوا بجروح بسبب قمع الشرطة الإسرائيلية لهم.

وبلغت أعداد المصلين ذروتها ليلتي الجمعة والسبت، وحينها أدرك الفلسطينيون أن صمودهم بدأ يثمر تراجعاً إسرائيلياً غير مسبوق.

ليلة النصر

في ساعات ما بعد منتصف ليل السبت - الأحد، كانت طواقم إسرائيلية قد وصلت إلى باب الأسباط، وغطت المنطقة بشادر كبير لم يكن في الإمكان من خلاله رؤية ما يجري في داخله. لكن بعض الفلسطينيين تمكن من التسلل عبر جدار السور القديم لرؤية ما يجري، وكانت المفاجأة.

كانت الطواقم الإسرائيلية قد شرعت في إزالة الجسور والممرات المعدنية، فانطلقت الحناجر في القدس القديمة ومحيطها بصيحات "الله أكبر"، وخصوصاً مع توارد الصور عبر شبكات التواصل الاجتماعي عن بدء إزالة السلطات الإسرائيلية ما تبقى من تعديلات.

انتشرت صور شاحنات إسرائيلية وهي تحمل الجسور والممرات المعدنية، ومعها كان الشبان ينطلقون بسياراتهم من جميع الأحياء مطلقين العنان لأبواقها، وصولاً إلى منطقة باب الأسباط التي تجتمع فيها عشرات الآلاف من المقدسيين في مشهد غير مسبوق، وأطلق بعضهم الألعاب النارية، بينما وزع البعض الآخر الحلوى، وتعانق الناس فرحاً بالنصر.

يقول فراس النتشه (٥٥ عاماً): "للمرة الأولى نحقق كفلسطينيين ١٠٠٪ من مطالبنا، إنه نصر عظيم والفضل لسكان القدس".

انضم الشيخ الكسواني إلى الشباب الذين كانوا يريدون الاستماع إلى قرار المرجعيات الدينية بعد هذا التطور اللافت، وقال: "لن يكون الدخول إلا بعد أن نحصل على تقرير من اللجنة الفنية، ولذلك لن نتعجل في الدخول إلا بعد أن يقدم التقرير، ويكون اجتماع مع المرجعيات الدينية، وبناء على ذلك سيتم اتخاذ القرار الملائم". وأضاف: "في الصباح سيكون هناك اجتماع للمرجعيات الدينية فلا تتعجلوا في الدخول، أنا أعرف كم نحن نشاق إلى أن نصلي الفجر في المسجد الأقصى، لكن لن نصلي الفجر إلا بعد أن نتأكد من تقرير اللجنة الهندسية".

... ودخلوا إليه منتصرين

قُبيل ساعات الظهر كانت المرجعيات الدينية قد اجتمعت واستمعت إلى تقرير اللجنة الفنية التي قررت أن سلطات الاحتلال الإسرائيلي أعادت فعلاً الوضع إلى ما كان عليه قبل ١٤ تموز/ يوليو، فكان قرار الدخول جماعياً من خلال باب الأسباط في موعد صلاة العصر.

وقالت المرجعيات الدينية في بيان لها: "إن صمودكم التاريخي ووحدتكم وإجماعكم حول قضية الأقصى هو الذي أرغم الاحتلال على التراجع عن قراراته الأخيرة الباطلة والظالمة بحق مسجداً وأقصانا". كان عشرات الآلاف من الفلسطينيين، رجالاً ونساءً وأطفالاً وكباراً، قد تجمعوا في منطقة باب الأسباط في انتظار سماع صوت أذان العصر من أجل الدخول إلى المسجد الأقصى للمرة الأولى منذ أسبوعين. لكن أنباء سرت بأن الشرطة الإسرائيلية ترفض إعادة فتح باب حطة الذي قُتل خارجه الشطيان الإسرائيليان الاثنان، فصاح المقدسيون: "لا دخول، لا دخول، إلا بفتح باب حطة".

تراجعت المرجعيات الدينية التي كانت تتقدم الصفوف، وقال أحد المواطنين للشيخ سلهب: "يا شيخ، نحن نحترمكم وكنا معكم وأنتم معنا، لكن إذا دخلنا الآن، فإن باب حطة لن يعاد فتحه لأعوام. دعنا ننتظر، لقد صبرنا ١٤ يوماً، وفي إمكاننا أن نصبر يوماً أو يومين إضافيين، ونحن على ثقة بأن الشرطة ستراجع وستفتح باب حطة".

انكفأت المرجعيات إلى الخلف وسط تصفيق حاد من طرف المقدسين وصيحات "الله أكبر". ومع انطلاق الأذان كان العشرات من الشبان يحملون الشيخ محمد حسين على الأكتاف وهو يشير بيديه إلى أنه تم فتح باب حطة، فهرعت الأغلبية من المواطنين في اتجاه هذا الباب القريب، وبدأ الدخول التاريخي إلى المسجد الأقصى من خلال بابي حطة والأسباط.

بدا المشهد غير مألوف، فالبعض كان يؤدي سجدة الشكر لله على الرغم من التدافع الكبير للسكان، وآخرون كانوا يوزعون الحلوى أو يلقون بحبات الملبس وسط ترديد "الله أكبر، الله أكبر ولله الحمد". توجه الآلاف إلى صحن قبة الصخرة مسرعين، وشرعوا يقبلون أرض المسجد ويسجدون سجدة شكر لله، بينما صعد ٦ شبان إلى سطح المصلى القبلي، ولوحوا بأعلام فلسطينية وسط تصفيق عشرات الآلاف. وقدرت مصادر محلية أعداد الفلسطينيين الذين دخلوا المسجد في نحو نصف ساعة ما يزيد على ٧٠,٠٠٠.

ونقل الفلسطينيون المشاهد من خلال شبكات التواصل عبر الهواتف النقالة إلى حد أن شبكات الاتصال انهارت.

خاطب الشيخ محمد حسين الذي كان يخشى غدر الإسرائيليين، الشبان عبر مكبرات الصوت في المسجد، قائلاً: "لا تنجروا إلى استفزازاتهم (الشرطة)، وأنا أدعو الشبان الموجودين على سطح المسجد إلى النزول فوراً". في غضون ذلك كان العشرات من أفراد الشرطة يخرجون من باب السلسلة، إحدى البوابات في الجدار الغربي للمسجد، ويتوجهون إلى المنطقة المقابلة لباب المغاربة، واتخذ نحو ٣٠ شرطياً موقعاً هجومياً، بينما دعا الشيخ حسين إلى إقامة الصلاة.

ومع انتهاء الصلاة هاجم عناصر الشرطة المصلين بقنابل الصوت، فردوا عليهم برشقهم بالحجارة وسط إصابة مزيد من الفلسطينيين.

كانت الشرطة قد أغلقت جميع أبواب المسجد خلال فترة الصلاة، ولم تسمح للمصلين بالخروج سوى من باب الأسباط.

وقال الشيخ الكسواني: "ما تم هو نصر جزئي، فالمسجد الأقصى والقدس ما زالا تحت الاحتلال الإسرائيلي، وسنبقى في يقظة حتى النصر الكامل بالتحريير." ■



مصلون خارج الأقصى.
المصدر: الموقع الإلكتروني لجريدة "اللواء" اللبنانية.



شهداء عملية الأقصى



المصدر: موقع "السياسي" الإلكتروني.



تفكيك الجسور الحديدية.
المصدر: موقع "بلدتنا" الإلكتروني.